المؤرخ الإسلامي الهندي الشهير

القاضي أطهر المباركبوري

في ذمّة الله

بكل معاني الحزن والأسف والرضا بقضاء الله وقدره ، ودّعت الأوساط الإسلامية في الهند، المؤرخ والبحاثة الإسلامي الهندي المعروف"القاضي أطهر المباركبوريّ" الذي استأثرت به رحمة الله تعالى في نحو الساعة العاشرة من ليلة الاثنين ١٤١٧/٢/٢٨هـ الموافق ١٩٩٦/٧/١٥م في مسقط رأسه ووطنه بلدة "مبارك بور" إحدى القرى الجامعة في مديرية "أعظم جراه" بولاية " أترابرديش" بالهند ، وصلى عليه خلق كثير بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور، ودُفِنَ بنفس البلدة بمقبرة "شاه بنجه" ؛ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كان القاضي أطهر المباركبوري من الكتاب الإسلاميين المكثرين الذين أثروا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم ذات القيمة والغناء، النابعة من الدراسات المضنية حقا. وكان رحمه الله مؤرخا فذّا بل رائدا في موضوع العلاقة القديمة بين العرب وشبه القارة الهندية؛ حيث كانت حصيلة دراساته الواسعة العميقة الدقيقة المتصلة المستغرقة للسنوات الطويلة؛ مُؤَلّفاتٌ دسمة لايمكن أن يستغني عنها أي دارس وباحث للموضوع المشار إليه. أمثال: "رجال السند والهند" و " العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين " و "الهند في عهد العباسيين".

واعترف بوجاهته العلمية العجمُ والعرب، وتجاوز صيته الهندَ إلى العالم الإسلامي ولاسيما البلاد العربية التي اعتنت مطابعها بإصدار مؤلفاته العربية، واهتمت مكتباتها باقتنائها وتوزيعها، و أشاد علماؤها الأجلاء بمكانته الفريدة في الدراسة التأريخية المتعلقة بصفة خاصة بالصلة المتجذرة بين الهند والعرب.

كان رحمه الله صنعةَ نفسِه و مثالاً لتخريج الإنسان نفسَه مثقفا ذا غناء لدينه وعقيدته وأمته وهو يعيش حياة متقشفة في بيئة بسيطة غير منفتحة على أنوار الحضارة والثقافة الباهرة لا تعرف مدرسة كبيرة ولا جامعة فخمة ولا حركة ثقافية تمتاز بها المدن الإسلامية الكبرى في العالم أمثال: دمشق والقاهرة والحجاز وبغداد وفاس والرباط و دهلي وما إليها؛ فقد أكمل رحمه الله جميع مراحل دراسته في بلدته – القرية

الجامعة "مباركبور" في بعض كتاتيبها البيتيّة ومدرستها المعروفة بـ " إحياء العلوم" باستثناء عام واحد تلقى فيه الدراسة العليا بـ " الجامعة القاسميّة" بمدينة "مرادآباد" بولاية "أترابراديش"

يقول القاضي رحمه الله في كتابه " من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاريّ" الذي تحدث فيه باللغة الأردية بإيجاز عن أخبار حياته وقصة تعلمه منذ مرحلة الكُتّاب حتىالدراسات العليا فالحياة الميدانية التي عاشها متنقلا بين التدريس والصحافة والكتابة والتأليف والرحلات بين شتى مدن الهند ومدن العالم الاسلامي:

"إنّ تسهيلاتى المحدودة و ظروفى الخاصّة ، لم تسمح لي بشكل أو بآخر للتوجه إلى المدارس الكبري خارج البلدة – بلدة "مباكبور" – فلم يُتحْ لي أن أعيش خارجها لتلقى العلم إلاّ عاماً واحداً وذلك أيضا بعد صعوبة كبيرة. ورغم ذلك كانت همتي البعيدة و رغبتى الجامحة في تحصيل العلم تجعلاننى أحلم دائما بتلقى التعليم العالى في الجامع الأزهر الشريف، بل ظل هذا الحلم يراودنى لمرحلة لاحقة. ولكنى بفضل طموحى ورغبتى حَوَّلْتُ إخفاقى نجاحاً؛ حيث اتخذتُ من بيتي ومدرستي " الجامع الأزهر" و " جامع الزيتونة" و "جامع قرطبة" و " المدرسة النظامية" و " المدرسة المستنصريّة" وتلقيت الشيء الكثير وأنا قابع في وطنى "مباركبور" وذلك بفضل الله تعالى وبعطف أساتذتي وباجتهادي وعلو همتي. وكنت أعيش آنذاك حنينا عجيبا إلى الدراسة وهياما غريبا بالعلم، وكنت أعايش كل وقت مشاهد المدارس الإسلامية القديمة في "بغداد" و "بخارا" و "الأندلس" و "غرناطة" والعواصم العلمية الإسلامية الأخرى وأساتذتها و تلاميذها ، و كنت أستفيد من معطياتها وبركاتها" (١)

والأمر الذي أشار إليه القاضي رحمه الله، يدل على أنّ الإنسان لا تعينه البيئةُ والتسهيلاتُ بالضرورة على تخريج نفسه مؤهلاً قادرا على أداء دور يُذْكَرُ في مجالات العلم والثقافة والفكر والدعوة، بمثلما يعينه على ذلك اجتهادُه المطلوب ورغبتُه الصادقةُ وهمته المُوَفِّقَةُ المُوَجِّهَةُ من قبل الله العلي القدير. إن العنصر الثاني هو الذي كان العامل الأكبر وراء كل ما أحرزه القاضي رحمه الله من انتصار نحو صنع نفسه على المستوى الذي كان يتوق إليه ثم وراء الأعمال الثقافية الخالدة التي قام بها.

يقول القاضي رحمه الله:

"إذا كان الطالب يتمتع بالرغبة في التقدم والطموح إلى المضي إلى الأمام مع الاجتهاد الكافي والسعي المطلوب، فبوسعه أن يكون "كبيرا" وهو في "مكانٍ صغير" . وإذا كان مجردا من هذه المعاني فإنه سيظل "صغيرا" وهو في "مكان كبير".

"إنّي لم أحظَ بالاسفادة من مؤسسة علمية تحقيقيته وتربوية كبيرة ولم أسعد بتوجيه من شخصية كبيرة، كما أن أوضاعي الشخصية والأهلية لم تكن

مواتية؛ ولكني – رغم ذلك كله – مرتاح ومسرور بأني، بفضل رغبتي الشخصية واجتهادي وصنعي لنفسي بنفسي، قد أحرزت ما يحرزه الناس عن طريق مؤسسات كبيرة وتحت إشراف شخصيات كبيرة. وربما يجوز– وفعلا يحدث ذلك – أنني لئن تمتعت بظل شخصية كبيرة في مؤسسة كبيرة لكانت شجرتي العلمية قد حُرِمَت قُوَّةَ النمو والتنفس في الفضاء الأرحب والجو الطليق". (٢)

أيام دراسته:

قضى القاضي رحمه الله الفترة ما بين صفر ١٣٥٠هـ– شعبان ١٣٥٩هـ أي عشر سنوات من عمره في اجتياز مراحل التعليم من الابتدائية إلى الدراسات العليا، أمضى كلها – كما أسلفنا– في مدرسة "إحياء العلوم " الكائن بوطنه " مباركبور" اللهم إلاّ عاما واحدا قضاه في الجامعة القاسمية بـ " مراد آباد" التي قرأ فيها دراوين الاحاديث على أساتذتها، أمثال الشيخ السيد فخر الدين أحمد المتوفى ١٣٩٢هـ والشيخ السيد محمد ميان الديوبندي الدهلوي المتوفى ١٣٩٥هـ والشيخ محمد إسماعيل السنبهلي المتوفى ١٣٩٥هـ.

أما في مدرسة "إحياء العلوم " بـ "مباركبور" فقد قرأ فيها كتب شتي العلوم و الفنون الاسلامية على مولانا المفتي محمد يسين المباركبوري المتوفى ١٤٠٤هـ و مولانا شكر الله المباركبوري المتوفي ١٣٦١هـ و مولانا بشير أحمد المباركبوري المتوفي ١٤٠٤هـ و مولانا محمد عمر المظاهري المباركبوري المتوفي ... و علي خاله مولانا محمد يحي الرسول بوري المتوفي ١٣٨٧هـ . وعلي المنشي عبد الوحيد اللاهربوري المتوفي ... و المنشي أخلاق أحمد المتوفي ١٤٠٤هـ .

وقد سمي القاضي رحمه الله في كتابه الأردي "من القاعدة البغدادية إلي صحيح البخاري "العلماء و الأفاضل المتواجدين بمباركبور أيام تحصيله و فيما بعدها الذين لقيهم وكسب الطموح العلمي و الفكري بما رأي فيهم أو سمع عنهم .(٣)

كما عَدَّدَ أمهات الكتب العربية في شتي العلوم، التي اطلع عليها، و قرأها في إمعان و اكتسب منها رصيدا علميا ثرًّا استفاد منه طوال حياته الثقافية و الكتابية، من بينها:

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر، و دلائل النبوة للاصفهاني، و سبحة المرجان في آثار الهندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي ، و آكام المرجان في أحكام الجان لأبي بكر شبلي البغدادي ، و حياة الحيوان للدميري، و الصواعق المحرقة لابن حجر المكي ، و العمدة في الشعر و نقده لابن رشيق القيرواني ، و المحاسن والأضداد للجاحظ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، و الميزان الكبري للشعراني .

وفقه اللغة للثعالبي، وأمثال العرب للضبي، و نقد الشعر لابن قدامة، و كتاب الصناعتين للعسكري.

و السيرة النبوية لابن هشام ، و وفاء الوفاء للسمهودي ، والمستطرف في كل فن مستظرف ، وديوان الفرزدق .

ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ، و توالي التاسيس . (٤)

وكانت له رحمه الله عناية بالغة منذ مراحله الأولي في التحصيل باقتناء المطبوعات و المخطوطات من الكتب ، فاشترى أيام تحصيله بما كان يقتطعه من النقود من مصاريفه اليومية ورغم ما كان يقاسيه من سوء الحالة الاقتصادية ٣٤ كتابا من أهم المصادر العربية في مختلف العلوم . وقد عددها في كتاب " من القاعدة البغدادية إلي صحيح البخاري " و أشار إلي ثمن كل منها لدي شرائه آنذاك . كما استنسخ نحو عشرة كتب في شتي العلوم مما كان نادرًا لايوجد مطبوعا في السوق.

مما يدل علي رغبته المثالية القوية في التزود من العلم و الثقافة .

هوايته الكتابية:

أما هوايته الكتابية فقد أشار في شأنها إلي أن الميل إليها إنما نشأ لديه عن طريق جده من الأم مولانا أحمد حسين المتوفي ١٣٥٩هـ الذي كانت لديه ذخيرة قيمة من المصادر و المراجع الإسلامية باللغات العربية و الفارسية و الأردية ما بين مطبوع ومخطوط ، والذي كان كثير القراءة لها ، ومكبا علي الأخذ والاقتباس والكتاب والتأليف .

وظل القاضي رحمه الله ينمي ذوقه الإنشائي التأليفي الذي استقاه من جده المذكور ، وقوي عندما بدأ في دراسة العربية ، كما نشأ لديه ميل في هذه المرحلة إلي قرض الشعر ، و نشرت صحيفة "الجمعية" الأردية أول مقال له وجيزا، ثم نشرت له مجلة "مؤمن" الأردية مقالا له عام ١٣٥٣هـ بعنوان "المساواة" ، ثم نشرت هي له مقالة أخري بحجم صفحتين وتلتها جريدة "العدل" الأسبوعية الصادرة بـ "كوجرانواله" بولاية البنجاب الباكستانية حاليا فنشرت له مقالا. وبعدئذ تَقَوَّي الطموح لديه إلي مواصلة الكتابة .

وقد قال رحمه الله في كتابه المذكور :

أما بالنسبة إلي الكتابة فإن ذوقه هو الذي كان حاديا له وأن الثقة بالذات هي التي شجعته ، و أنه لم يتعلم بشكل مستقل من أحد فن جمع المواد وتوفير المعلومات و تصنيفها الفني و أسلوب الكتابة ، و لذلك كان قد يضطر لإعادة كتابة مقال واحد مرات عديدة ، ثم يمزقه و يقذفه في سلة المهملات ، فكان لأياتي موافقا لذوقه إلا بعد عناء طويل . (٥)

عام ١٣٥٧هـ زار مدرسته " إحياء العلوم " التي كان يتعلم فيها – الشيخ الشريف مولانا محمد ميان الديوبندي الدهلوي – الكاتب الإسلامي الكبير – المتوفى ١٣٩٥هـ .

الذى كان آنذاك أستاذا للحديث الشريف بالجامعة القاسمية بـ"مراد آباد" وذلك لرياسة الاحتفال السنوي لجمعية الطلاب بالمدرسة ، فتعرف الشيخ رحمه الله على الطالب القاضي أطهر المباركبوري كمزاول للشعر والكتابة ، فدعاه أن يكتب لمجلته "قائد" التى كان يصدرها عن "مرادآباد" ، وهنا وجد فرصة لصقل قدراته الكتابية ، حيث ظل يكتب فى المجلة لمدة، واستطاع إلى جانب ذلك أن يؤلف أيام تعلمه كتابين بالعربية و ثلاثة كتب بالأردية . (٦)

أعماله بعد الانتهاء من الدراسة الرسمية

بعدما انتهى من الاستكمال الرسمي للمراحل الدراسية عمل فى الفترة ما بين شوال ١٣٥٩هـ-١٣٦٤هـ/١٩٤٠م-١٩٤٤م مدرسا فى مدرسة إحياء العلوم بـ "مباركبور " و نقل خلالها رسالتين للسيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ-١٣١٤هـ/١٨٣٩-١٨٩٧م) إلي الأردية على طلب من شركة الشباب بـ "بومباى" لأبناء المولوى محمد بن غلام رسول السورتي .

وفى الفترة ما بين ٢٧/نوفمبر ١٩٤٤م-١٢/يناير ١٩٤٥م عمل عضوا فى مركزمنظمة أهل السنة بـ "أمريتسار "كتب و استكتب و أصدر خلال هذه الفترة بحوثا فى الرد على الشيعة والقاديانية وعمل فى الفترة ما بين ١٣/يناير ١٩٤٥م و١/يونيو ١٩٤٦م فى شركة زمزم المحدودة بـ "لاهور " التى كانت تُصْدِرُ جريدة نصف أسبوعية ألف خلالها "منتخب التفاسير" فى (٩٥٠) صفحة.

وخلال عمله بـ"لاهور " قام أبوه برحلة الحج والزيارة ، فعمل مدرسا موقتا فى مدرسة "إحياءالعلوم" بـ "مباركبور"فى الفترة ما بين شوال ١٣٦٦هـ و صفر ١٣٦٧هـ الموافق١/أكتوبر ١٩٤٦م - يناير ١٩٤٧م . وفى ١٧/يناير ١٩٤٧م تحولت جريدة "زمزم"الأسبوعية يومية فاتصل بها وتمرن على العمل الصحفي تحت تربية الصحفي الأردي الكبير مولانا محمد عثمان فارقليط المتوفى ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ولدى الاضطرابات التى حدثت عند تقسيم الهند بين الهند و باكستان رجع كلاهما إلى وطنيهما فى الهند عازمين على العودة إلى لاهور فور استقرار الأمن ، ولكن الظروف لم تسمح لهما بالعودة إليها .

و فى أوائل ١٩٤٨م أصدر فى مدينة "بهرائج" بولاية "أترابراديش" بالهند جريدة أسبوعية باسم "أنصار" و كان الشيخ أبو الفضل عبد الحفيظ البلياوي مؤلف قاموس " مصباح اللغات" مديرا فيها، و لكنها احتجبت بعد سبعة أو ثمانية شهور فقط من أجل سخط الحكومة عليها . وعمل مدرسا فى الفترة الممتدة ما بين شوال ١٣٦٧هـ و شعبان ١٣٦٨هـ فى جامعة تعليم الدين بمدينة "دابهيل".

و فى يوم الجمعة ٢٨/ذوالحجة ١٣٦٨هـ الموافق نوفمبر ١٩٤٩م ألقى عصا التسيار بمدينة بومباى التى كانت المحطة الأخيرة فى حياته الثقافية

واتصل فى بومباى فى أول الأمر بمكتب جمعية العلماء لولاية بومباى ، وعمل فيه مفتيا و كاتبا فى الموضوعات الدينية . ولما أنشئت يوم ١٥/ يناير ١٩٥٠م " الجمهورية " اليومية عُيّن نائب رئيس تحرر فيها ولكن بعض الناس اصطنعوا أوضاعا مناوئة ضده رحمه الله فانقطع عنها . واتصل فى ٢٣/ فبراير ١٩٥١م بـ "انقلاب" اليومية وواصل فيها الكتابة يوميا حول عنوان " جواهر القرآن" و "أحوال و معارف" وكان يتعرض فى هاتين الزاويتين للموضوعات الثقافية و الدينية و السياسية و التاريخية و الاجتماعية ، حتى أوقف هذه السلسلة بدوره فى مارس ١٩٩١م بعد ما استمر فيها دونما انقطاع لأكثر من (٤٠) أربعين سنة.

وعام ١٩٥٢م أصدرت جمعية "خدام النبي " بـ "بومباى " "البلاغ" الشهرية و "البلاغ" الأسبوعية، فعين رحمه الله عضوا فى تحرير كل منهما . و احتجبت "البلاغ" الأسبوعية بعد ستة شهور أما "البلاغ" الشهرية فظلت تصدر تحت إدارته لأكثر من خمسةوعشرين (٢٥) عاما. وخلال هذه الفترة قام بتدريس المواد الدينية لمدة عشرة أعوام اعتبارا من ١٢/نوفمبر ١٩٦٠م وذلك فى المدرسة الثانوية العالية التابعة لجمعية خدام النبي ، كما عمل مدرسا لبعض الحصص فى دارالعلوم الإمدادية بمدينة "بومباى " وعام ١٩٥١م وضع حجر الأساس لمدرسة "مفتاح العلوم " بمدينة "بهيوندى" التى لاتزال سائرة وشاهدة للتقدم. (٧)

مكث رحمه الله فى هذه المدينة الهندية التجارية الكبرى بومبائى ٣٠(ثلاثين) عاما، ولكن هذه المدينة ذات الحضارة الباذخة والثروة الفائضة التى تبهر الناس حتى العلماء و المثقفين لم تقدر أن تذلّه القاضى رحمه الله عن انقطاعه إلى المشاغل العلمية و توفره على الدراسة و الكتابة و التأليف، وإنجازه للأعمال العلمية الجليلة التى قد لايقوم بها الناس على رواتب مغرية وفى مؤسسات ومجامع علمية فخمة تُنشأ لأجل إحراز الثروة باسم خدمة العلم و الثقافة . وقد عرض عليه خلال تواجده بمباى بعض المعجبين به من رجال الأعمال والمال هدايا عريضة وأموالا طائلة ، ولكنه رفضها مع جزيل شكرهم، وآثرالحياة البسيطة على العيش الباذخ، وتمسك بالقناعة مقابل التمتع بالملذات التى تحول دون التمتع بلذة الصبر والمثابرة فى سبيل البحث و الدراسة والتأليف وخدمة العلم بصدق الإخلاص .

مؤلفاته بالأردية :

(١) عرب و هند عهد رسالت مين (٢) خلافت راشده اور هندوستان (٣) خلافت امويه اور هندوستان (٤) خلافت عباسيه اور هندوستان (٥) هندوستان مين عربون كى حكومتين (٦) اسلامى هند كى عظمت رفته (٧) آثار ومعارف (٨) ديار پورب مين علم و علماء (٩) آثار وأخبار .

وهذه المؤلفات كلها كان قدأصدرها أولاً مجمعُ " ندوة المصنفين " بدهلي تحت إشراف مؤسسه و مديره الشيخ عتيق الرحمن العثماني الديوبندي المتوفى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م كما أصدرت طبعاتٍ منها مكتباتٌ و مؤسسات علمية أخرى في الهند وباكستان. أما كتاب " عرب و هند عهد رسالت مين " فقد نقله العالم المصري الدكتور عبد العزيز عبد الجليل إلى العربية و قام بطبعه " الهيئة المصرية لكتاب مصر " كما قام الدكتور بنقل كتابه "هندوستان مين عربون كي حكومتين " (حكومات العرب في الهند) إلى العربية و نشره في حلقات في مجلة " الدراسات الإسلامية " الصادرة بجامعة إسلام آباد بباكستان ، ثم صدر مطبوعا في كتاب في الرياض بالمملكة العربية السعودية .

(١٠) مختصر سوانح أئمه أربعه (١١) تدوين سير و مغازى (١٢) خير القرون كي درس گاهين (١٣) خواتين إسلام كي ديني و علمي خدمات .

هذه الكتب الأربعة أصدرتها أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديوبند ، بالهند. و الجدير بالذكر أن القاضي رحمه الله كان مُشرفا فخريا على الأكاديمية .

(١٤) معارف القرآن (١٥) علي والحسين (١٦) طبقات الحجاج (١٧) تذكرة علماء مباركبور (١٨) تعليمي سر گرميان عهد سلف مين (١٩) افادات حسن بصري (٢٠) إسلامي نظام زندگي (٢١) حج كے بعد (٢٢) مسلمان (٢٣) إسلامي شادي (٢٤) قاعدة بغدادي سے صحيح بخاري تك .

وهذه المؤلفات أصدرتها شتى المكتبات في شتى الأوقات .

مؤلفاته بالعربية :

(٢٥) رجال السند و الهند . صدرت الطبعة الأولى منه من المطبعة الحجازية بـ "بومباي" و صدرت طبعته الثانية المزيدة المنقحة من " دارالأنصار " بالقاهرة.

(٢٦) "العقد الثمين في فتوح الهند و من ورد فيها من الصحابة و التابعين" صدرت طبعته الأولى ببومباي ، وصدرت الطبعة الثانية من دارالأنصار بالقاهرة . (٢٧) الهند في عهد العباسيين ، أصدرته دارالأنصار بالقاهرة .

التحقيق و التعليق باللغة العربية :

(٢٨) جواهر الأصول في علم حديث الرسول لأبي الفيض محمد بن محمد بن علي الحنفي الفارسي . صدرت الطبعة الأولى منه من شركة شرف الدين الكتبي وأولاده بـ "بومباي" و الطبعة الثانية من الدارالسلفية ببومباي و قام بتوزيعها المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . (٢٩) تأريخ أسماء الثقات لابن شاهين البغدادي . أصدرته شركة شرف الدين الكتبي وأولاده ببومباي . (٣٠) ديوان أحمد بالعربية لجده من الأم مولانا أحمد حسين ، الذي قام القاضي رحمه الله بتدوينه و تحقيقه و طبعه وتوزيعه .

هذا بالإضافة إلى مئات من البحوث و المقالات التى نشرتها كل من مجلة " معارف " بأعظم جراه، و مجلة " برهان " بدهلى و جريدة " صدق " بلكهنؤ و مجلة " دارالعلوم " الصادرة بالجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند، بالهند و " انقلاب " ببومباى . وغيرها من المجلات و الجرائد .(٨)

رحلاته الثقافية والدينية :

تشرف بالحج و الزيارة خمس مرات : فقد كانت حجته الأولى عام ١٣٧٥هـ ، و الثانية ١٣٨٥هـ ، و الثالثة ١٣٩٣هـ ، والرابعة ١٣٩٧هـ ، والخامسة ١٤٠٢هـ.

وبعد الانتهاء من أداء مناسك الحجة الرابعة زار عددا من المدن والبلاد العربية و الإسلامية و لقى فيها العلماء والأدباء و المثقفين . من بينها جدة و الطائف و خبر و الدمام و الرياض و الدرعية و القاهرة وحلوان و الإسكندرية و غينيا وآكرا والأردن، وعمان، والرياض ، وكراتشى ، ولاهور . بالإضافة إلى مدينتي الحرمين الشريفين اللتين تكررت زيارته لهما . و بالإضافة إلى معظم مدن الهند و باكستان . (٩)

إكرامه بالوسامات والجوائز :

فى مارس ١٩٨٤م حضر المهرجان الأدبي السندي على دعوة من مسئوليه ، حيث أُكرِمَ فى احتفال فخم ترأسه الجنرال ضياء الحق (شين) ٣ محرم ١٤٠٩هـ ١٧أغسطس ١٩٨٨م يوم الاربعاء بالرداء السندي التقليدي ووسام تكريم من قبل "تنظيم فكر ونظر " بالسند. وزار إسلام آباد على دعوة رسمية فى ١٤٠٠هـ حيث حضر المؤتمر الثالث للقرآن الكريم و مؤتمر السيرة النبوية ، و بهذه المناسبة أكرمه الجنرال ضياء الحق بمصلى كشميرى ثمين و بلمبة من النوع الممتاز وبالمصحف الشريف .

فى أغسطس ١٩٨٦م دعته منظمة "فكر ونظر" بالسند كضيف شرف بمناسبة تدشين كتبه التى قامت بطبعها ، حيث عُقِدَ الاحتفال بذلك فى فندق التاج محل بكراتشى تحت رئاسة كبير وزراء ولاية السند السيد غوث على شاه ، و تحدث فيه كُلّ من السيد خالد ايم إسحاق أحد رجالات القانون الكبار ، و المرحوم البروفيسور سراج منير مدير إدارة الثقافة الإسلامية بلاهور ، و البروفيسور بريشان ختك رئيس جامعة كومل ببشاور ، و العالم بالسنديات الدكتور نبى بخش بلوچ ، و البروفيسور اياز ، عن القاضى رحمه الله و مكانته العلمية ، و قيمة مؤلفاته وكتاباته ، و معالجته للمواضيع التأريخية غير المطروقة .

هذا، وقد أكرمته حكومة الهند يوم ١٥/أغسطس ١٩٨٤م حيث أهدى إليه رئيس الجمهورية الهندية – لقاء خدمته للغة العربية وإنجازه الأعمال العلمية – شهادة تنويه ورداء كشميريا ومنحة دراسية قدرها خمسةآلاف روبية سنويا ، وقد رُفِعَ مقدارها عام ١٩٨٨م إلى عَشرة آلاف روبية سنويا . وظل يتلقى المنحة لحين وفاته . (١٠)

صلته بالمؤسسات الثقافية و التعليمية

عمل مسؤولا عن جمعية بناءات الأدب بلاهور و مستشارا ثقافيا لإدارة إحياء التراث العربي بدولة الكويت ، ورئيسا لجمعية علماء مهاراشترا ، ورئيسا لهيئة التعليم الديني بمهاراشترا ، وعضوا فى جمعية خدام النبي ببومباى ، وعضوا فى لجنة الهلال بجامع بومباى .

وظل لحين وفاته عضوا فى المجلس التأسيسي لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند ، و مشرفا على أكاديمية شيخ الهند التابعة للجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديوبند، الهند، وعضوا باحثا بصفة فخرية فى مجمع دارالمصنفين بأعظم جراه ، ورئيس تحرير فخري لمجلة " برهان " بدهلى ، وعضوا فى مجلس الشورى بدارالعلوم تاج المساجد بمدينة "بهوبال " بولاية آندهرابراديش ، و عضوا فى المجلس الاستشاري لجامعة ندوة العلماء بلكهنؤ وعضوا في مجلس الشورى بالجامعة الأشرفية بـ"نيا بهوجبور " بولاية "بيهار ".(١١)

ولادته ونسبه و أسرته

ولد رحمه الله فى الساعة الخامسة صباحا من يوم ٤/ رجب ١٣٣٤هـ الموافق ٧/مايو ١٩١٦م ببلدة "مباركبور " بمديرية "أعظم جراه " بولاية "أترابرديش ". و سماه جده من الأم مولانا أحمد حسين الرسول بوري المتوفى ١٣٥٩هـ " عبد الحفيظ " و لكنه اشتهر فى دنيا العلم بالقاضى أطهر المباركبوري .

أما نسبه فهو عبد الحفيظ المعروف بالقاضى أطهر المباركبوري بن الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج لعل محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ على .

توفى والده الشيخ الحاج محمد حسن فى ١١/ ربيع الأول ١٣٩٨هـ أما والدته السيدة حميدة بنت مولانا أحمد حسين بن الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ جمال الدين .. فقد استأثرت بها رحمة الله تعالى يوم ٢٢/ ذوالقعدة ١٣٥٢هـ .(١٢)

وخلف القاضى رحمه الله وراءه بالإضافة إلى زوجته - حفظها الله تعالى - أربعة بنين كلهم متزوجون و لهم أولاد و هم : ١ - الأستاذ خالد كمال متخرج من الجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند بالهند و من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة و يعمل فى نيوزي لندا، داعية مبعوثا من قبل وزارة الشؤون الإسلامية السعودية و كان يعمل من قبل فى " غانا " .

٢ - الأستاذ الحاج ظفر مسعود ، متخرج من جامعة مفتاح العلوم الكائنة بمدينة مئو نات بهنجن ، يمتهن التجارة فى وطنه "مباركبور ".

٣ - الأستاذ سلمان مبشر ، متخرج من الجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديو بند بالهند ، ومن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، كان يعمل مدرسا وداعية فى "غانا" ، والآن يعمل مدرسا فى مدرسة

المساكين ببلدة "بهادر كنج " بمديرية "غازيبور "بولاية "أترابراديش" .

٤ - القاضي حسان أحمد ،متخرج من كلية شبلي بمدينة أعظم جراه ، يعمل صيدلانيا بصيدليته الخاصة بوطنه "مباركبور" .

كما خلف رحمه الله تعالى بنتين كلتاهما ذواتا أولاد ، كبراهما وهي " أم سلمة" متزوج مع الأستاذ مصباح الدين من سكان "محمد آباد " بمديرية "مئو" الذى توطن مع أسرته في مدينة "فيروز آباد" بولاية "أترا راديش " حيث يعمل أستاذا بالكلية المتوسطه . وصغراهما وهي "شميمة" حرم السيد رضوان أحمد متخرج من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة و من سكان قرية "نِواده"- من أعمال "مباركبور"- يمتهن التجارة .

صورة عن شخصيته

إن معرفتي به رحمه الله تعالى ترجع إلى نحو ربع قرن ، و كان لقائي الأول معه عام١٩٧٢م، في إحدى قدماته إلى مدينة لكهنؤ . ثم تكررت لقاءاتي معه بمدينة ديوبند حيث كان يختلف إلى المنتجع العلمي و مركز الإشعاع الإسلامي الأكبر الأعرق في شبه القارة الهندية المعروف بـ "دارالعلوم - ديو بند " كثيرا، على دعوة رسمية منه وبدون دعوة ، لأنه كان من المنتمين إلى المدرسة الديوبندية في الفكر و الدعوة و المنهج ، ورغم أنه كان متخرجا - رسميا - في جامعة (١٣)متبعة لجامعة ديوبند في العقيدة و المنهج لكنه كان يعتبر نفسه متخرجا من جامعة ديوبند رأسا ، و كانت الجامعة بدورها تتعامل معه كأحد أبنائها الخريجين منها مباشرة.

وكانت أذني قد عشقته قبل عيني ، بما كنت قد سمعته عنه و عن غزارة علمه و سعة اطلاعه و عمق دراسته للتأريخ الإسلامي و لاسيما الذي يتعلق بالعلاقة العريقة بين العرب و الهند ، وغيره من الموضوعات ذات الأبعاد التأريخية غير المطروقة من قبل بتلك الموضوعية التي تناولها بها رحمه الله.

فلما سعدتُ بلقياه أيقنتُ أن أذني لم تسمع والله أحسن مما قد رأى بصري.

كل من رآه من العلماء أو المتعلمين تفرس في وجهه علامات العلم و شارات البحث و الدراسة ، خلقه الله طالبا للعلم ، ما إن دخلتُ عليه في غرفته في دارالضيافة بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ، ديوبند ، إلاّ وجدته قارئا في كتاب أو مكبا على أوراق يكتب فيها.

وكان يكره التصنع في كل شيء ، في الملبس والمأكل والمظهر، ومناحي الحياة كلها ، حتى في الكتابة و التأليف ، فكانت كتاباته عفوية ، سلسلة ، جزلة ، قليلة الألفاظ ،كثيرة المعاني ، مشرقة الديباجة ، ذات تعبير مباشر ، لايسرف في استخدام الكلمات ، ولايطيل العبارة كالقصاصين و الروائيين و من يلف لفهم الذين يركزون على العبارة أكثر من المعاني .

نعم كان يكره التصنع في الكتابة و الخطابة و في اللقاء مع الناس أيضا . وكنتَ إذا لقيتَه لأول مرة

حسبت كأنك تعرفه منذ زمان أو هو عضو في أسرتك. كان ينفذ في قلوب ملاقيه و المتحدثين معه بكلامه العفوي الحلو ، و تعامله اللطيف ، وسلوكه الناعم ، و ابتسامته الإنسانية التي تتفتّح زهرتها على شفتيه بمجرد مفاتحتك إياه بالسلام عليه .

كان من الطراز القديم المبارك من العلماء ، فكان قنوعا لم يتحلب فمه للمغريات الدنيوية في مرحلة من مراحل حياته وحتى خلال إقامته الطويلة بالمدينة الهندية الكبرى "بومباى" التي يرقص فيها الثراء و الرخاء ويندفع فيها الإنسان لاهثا وراء داعي الثروة و المادة و المعدة ومايرضى الهوى.

وظلت القناعة خصيصة مميزة من خصائصه . وأنت تعرف أن القنوع يتغلب على مشكلات الحياة بسلاح القناعة بسهولة لايسيطر بها عليها الشحيح. ولذلك لم تعد لديه مع مرور الأيام قضية في الحياة إلا قضية واحدة وهي الدراسة والبحث ومواصلة الرحلة في بطون الكتب و الصدور عنها إلى نتيجة علمية وحصيلة فكرية تنفع الناس فتمكث في الأرض.

تعلم فن القناعة هذه منذ صغره في بيته الذي نبت فيه وترعرع و في مدرسته التي تربى وتعلم على أساتذتها الصالحين و في مجتمعه ذاك الذي كان الناس يُوْلَدُوْنَ فيه على طبيعة الاكتفاء و الاقتناع و حياة البساطة ، ويعيشون الحياة في هذا الإطار السعيد مرتاحي البال . قلت له مرة في إحدى زياراته للجامعة الإسلامية دارالعلوم، ديوبند: لابد أن أبناءكم قد كبروا الآن و بدأوا يركضون في سبيل الحياة ، فصرتم أنتم ميسوري الحال أكثر مما كنتم عليه عندما كنتم معيلين لهم وحدكم . فأجاب في تماسك : إني في غنى عنهم، رغم أنهم بدأوا يكسبون الثراء كما أشرت ، ولكني لم أرد أن أكون عبئا عليهم وأنا يكفيني ما عندي من صناعة الكتابة و التأليف التي ستظل تدر عَلَيَّ ما يغطي حاجاتي إن شاء الله .

وكان عاشقا للعلم صادقا، يستعذب العناء في سبيله ، و يستطيب الصبر و المثابرة في الدراسة والتأليف والكتابة في غنى عن الشهرة الكاذبة و النباهة الموقتة ؛ فكان يستلذ الاحتراق في سبيله احتراق الفراش . الأمر الذى لايعرفه الجيل المعاصر من العلماء والكتاب و المؤلفين و الصحفيين الذين يحبون في الأغلب أن يُحْمَدُوْا بما لم يفعلوا أو يودون أن يكسبوا بين عشية و ضحاها الصيت المطبق و الجاه العريض و الثراء المبطر. و في تحقيق هذا الغرض يُوَظِّفُوْنَ كل ما يقومون به من أعمال الدين و الدنيا وخدمات العلم و الثقافة . و لأجل أن أعمالهم تتجرد من صفاء الود معها و إخلاص الاجتهاد في سبيلها ، فتأتي سطحية لا إتقان فيها و لاتعمق ؛ حيث لم يعودوا يقدرون على تسقط السكر من أفواه النمل و الصبر على "مكاره" الدراسة المضنية كما كان يقدر عليه القاضي أطهر المباركبوري وسلفه الصالحون . وعندي أن مثل هذا الطراز العالي الشريف من خَدَمَة الدين و العلم عاد الزمان بخيلاً به وبدأ المتبقى من هذا الجيل النبيل ينقرض دون أن تحمل الأمّهات المسلمات بمثله.

ويرجع إلى عشقه للعلم أنه فيما يتعلق بالإنتاج العلمي لم يهتم بالكم بمثلما اهتم بالكيف ؛ ولذلك جاء

كل مؤلف من مؤلفاته بل كل مقالة من مقالاته عصارة دراسة واسعة واعية، فهما – المؤلف والمقالة – إنما يحتويان على اللب دون القشور التي هي ميزة كثير من الكتاب الإسلاميين في العصر الحاضر الذين يباكرون القارئ بكتاب جديد في كل صباح .

ويرجع إلى عشقه للعلم أنه لم يجعل الحقوق محفوظة فيما يتعلق بمؤلفاته حتى يدع الطريق مفتوحة أمام الاستفادة العامة وانتشار العلم و المعرفة وبقاء كتبه حية مُتَدَاوَلَة ؛ لأن المؤلفات المحفوظة الحقوق تموت في الأغلب بموت مؤلفيها أو تتعرض لنزاع مستطير الشرّ فيما بين ورثته . وقد أثبتت التجارب أن عملية "حفظ الحقوق" ضرها أكثر من نفعها .

البساطة، والتواضع، والعفوية، والقناعة، واللقاء البش، والمعاشرة المؤنسة، ولين الجانب، والانقطاع التام للعلم، والتفرغ للدراسة والكتابة، والرغبة عن زينات الدنيا في مباهج القراءة وبحث القضايا العلمية، وكراهية الشهرة والجري وراء الماديات ؛كانت عناصر رئيسية لشخصية الشيخ القاضي أطهر المباركبوري .

كان ربعة من الرجال ضاربا إلى القصر،كثّ اللحية، واسع الجبين، معتدل الجسم لا نحيلا ولا مفتولاً، أسمر اللون، قويّ الذاكرة، ذكي الفؤاد، كثير الذكر لمتعارفي مهما بعد لقاؤهم، قد ضعف بصره من الاكثار من القراءه في وقت مبكر، على عينيه نظارة طبية ذات قوة كبيرة، أبياً، كبير الثقة بالذات، متفائلا تفاؤلا أبعد بالحياة وبالناس، مقدرا لأوقامة، منصرفا إلى المشاغل العلمية، متفاديا من الهموم الدنيوية، لا يترفع ولا يفتخر، ولا يمدح نفسه، ولا يحقر غيره، هادئا في التحادث، محبا لطلبة العلم، كارها للمتعالين مهما كانوا وأينما كانوا .

رحمه الله رحمة واسعة، وأدخله فردوسه، وأثابه عما صنعه في سبيل خدمة الدين والعلم، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان، وأجزل مثوبتهم فيه، وأفاض علينا كأسا من سيرته العلمية والخلقية، ولا حرمنا أجره، ولا فتننا بعده، وأعاض الأمة بديلا منه .

نور عالم خليل الأميني

الحواشي

(١) من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري (باللغة الأردية) ١٨ – ١٩

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٩

(٣) أنظر المرجع نفسه، ص ١٣–١٦

(٤) اقرأ ص ٢٣–٢٤

(٥) اقرأ ص ٣٥–٣٦

(٦) انظر ص ٣٦

(٧) اقرأ ص ٤٩–٥١

(٨) اقرأ ص ٥٢–٥٣

(٩) اقرأ ص ٥٣–٥٥

(١٠) اقرأ ص ٥٥–٥٦

(١١) انظر ص ٥٦

(١٢) انظر ص ٩

(١٣) وهي الجامعة القاسمية بمدينة "مرادآباد" بولاية "أترابراديش" التي كان قد أسسها الإمام محمد قاسم النانوتوي (المتوفى ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠م) وذلك يوم ١٩/ من صفر ١٢٩٦هـ . وكان اسم الجامعة لدى تأسيسها "مدرسة الغرباء قاسم العلوم" ("ندائي شاهي" العدد الخاصّ بتاريخ الجامعة القاسمية الصادر بجمادى الأولى – جمادى الثانية ١٤١٣هـ ،ص ١٤٤) .